بين المدينة والقرابة

ولدت بالمدينة، وتربيت بين جدي وجدتي لأبي، ولم أرتوي من حبّ قبيلة الأبوة لكن هذا لا يمنع من حفظ ذكراهم الجميلة، طبعا هم متمردون أبوا إلا أن يكشفوا عن دفاتري ويتسللوا إلى أوراقي عبر حبري، لا مانع لدي ! فكانوا صمام أمان لي في هذه الدنيا.

أعيش في ضوضاء المدينة التي أصبح هواءها يسري في رئتي، لا أخفيكم سرا أنّني أدمنت حبّها رغما عنّي تعلمت فيها وأنا برعمة تصحبني أختي الأكبر منّي إلى المدرسة وتدافع عنّي بلوى قريناتي. ثمّ انتقلت إلى المتوسطة وأنا أجدّ وأجتهد حتى نلت شهادة المتوسطة. وبين هذا وذاك خلدت ذكريات ونجحت في شهادة البكالوريا بعد الخيبة الأولى ودخلت الجامعة وكلّي ذكريات طيبة وجميلة مع الجميع. ربّما لأنّي كنت فتاة مسالمة هكذا يعرفني الجميع.

بلغت مبلغ الشباب وتخرجت إلى الحياة العملية، تعلقت بالمدينة وصرت أخرج غالب الأيام بحثا عن عمل، أو شراء حاجيات ...وأحيانا صرت أتنفس هواءها صباح مساء. متسلية بضجيج السيارات ودخان المصانع، والضوضاء من حولي الكل مستعجل، الكلّ صاحب مسؤولية ولو أنّهم دون فائدة ؟ أدمنت المدينة فالجامعة أقرب منّي المكتبة أقرب منّي وحتى المجلات التي أصبحت قهوة الصباح بالنسبة لي هي الأخرى بمتناولي.

بوسط المدينة وعلى يمين البريد المركزي مقابلا دار البلدية اختار عمي سعيد ركنا لمزاولة نشاطه في بيع الجرائد. وكأنّه اختار مجاورة البلدية ليحكي لها معاناته في صمت دون أن يبوح لها بما في جعبته من آهات طامعا في أن تكون وقفته تلك تبعث برسالة مشفرة إلى المبنى الذي يحوي في داخله ممثلين عن الشعب. أشخاص منحهم ثقته كبقية الشعب مع أنّي أشك أنّه ممن مارس لعبة الاقتراع لعله أصبح كغيره يحسبها علبة سوداء أصبح ميؤوس منها.

في شارع الأقواس يضع عمي سعيد طاولة قديمة زيّنها بجلد مزركش مراعيا بذلك مشاعر زبائنه لكن سرعان ما تكشف أرجلها عن عيوبها.

كل صباح وقبل كل أحد تجد عمي سعيد مستقبلك وسط المدينة وكأنّه يملك مفتاح المدينة. عمي سعيد الرّجل الطيب الذي يحبه كل من اعتاد على وجهه الصبوح. يكون قد تجاوز العقد السادس لكن الجميع يعرفه بعنفوان الشباب. قد لعب الشيب برأسه أمّا عيناه فبالكاد تراهما لكثرة ما يغمضهما وهو يتبسم مقدما لك جريدتك المفضلة، وكأن بيع الجرائد لقنه فن الاتيكيت. لا تدخل معه في حوار إلا وخرج منه منتصرا.

من يوميات عمي سعيد أنّه إذا كان الجوّ باردا فتبدأ جولته من الثامنة صباحا أما في أيام الربيع فتبدأ من السابعة صباحا ليجد لصوص الأنباء قد سبقوه منتظرين طلّته الصباحية ليصبحوه بأحلى تحية، بعدها يبادرهم أحدهم «عمي سعيد مازال ما يجي الجرنان» فرد عليه «مازال يا وليدي راك قبلي هنا، لوكان جا كان راك قريته ورحت لاشغالاتك» مسكين عمي حسان أي أشغال للصوص الأخبار؟

بعد أن نشر الجرائد على طاولته سأله الآخر «عمي سعيد كاش أخبار ؟» ليرّد عمي سعيد «ما خبرونيش شراه يقول الجرنان اليوم» وبين أخذ ورد باللهجة الجزائرية تصل حافلة توزيع الجرائد لينشط الجميع لاستقبال أخبار اليوم. وكأنّه يستعجل الجريدة قبل عمي سعيد، ليدفع ثمنها ويهرب مهرولا.

عمّي سعيد هو يوم من يوميات المدينة المجنونة المفعمة بالنشاط ولا مكان للميت فيها. يوميات المدينة التي عشقت هواها.

ولكن رغم كل ذلك أحنّ إلى «القرابة» مكان بعيد عن وسط المدينة، هو مكان يجمع بين تحضر أهل المدينة وبساطة سكان البادية، بيت جدي ذلك الحوش الذي تعلمت فيه حبّ جدي وجدتي والأخوال. ذلك الحوش الذي كنت أزوره كل صائفة. رغم بساطة المكان لكن جماله لا يفارق مخيّلتي، بنيت حيطانه من الحجر الكبير، وإذا طرقت الباب الذي هو عبارة عن باب حديدي كبير قابلك الحوش بطوله وعرضه، عن يمينك تجد صهريج للماء كنا نعوم فيه في شدة الحر. مقابله دكان كان يبيع فيه خالي مواد غذائية عامة لكن سرعان ما أقفله، تتقدم قليلا عن الشمال تجد غرفتان الواحدة وسط الأخرى يشغلها الخال وزوجته. تتقدم قليلا تستقبلك شجرة العنب الذهبي ثم بجانها غرفة وحيدة كان يشغلها الجد رحمة الله عليه بحثا عن الهدوء وبعدها شجرة التين كنا نتسلقها ونجني ثمارها على اعتبار أنّها سهلة المراس بالمقارنة مع جارتها –شجرة العنب- إذا تقدمت قليلا يقابلك حوش مربع كأنّه صالون استقبال لطالما ارتشفنا الشاي في بهوه ويحلو فيه جلسة العائلة ولاسيما بعد العصر في أمسيات الصيف الحارة. بعده الصالة لكن قبل دخول الصالة يصادفك مطبخ صغير وضعت ثلاجة بوسطه يربطها حزام لتغلق تعبر عن بساطة أصحاب الدار،

وخزانة حملت في جوفها الكثير من مطلوع الجدة. ثمّ تدخل الصالة وهي مكان نوم العائلة وضع بها تلفزة تتسامر العائلة على ضوئها وبالزاوية صندوق خشبي كبير يحمل الدنانير القليلة التي تخبؤها الجدة للضرورة مع ذهبات قليلة اكتسبهن الخالات من عملهنّ ليجهزن أنفسهنّ لزوج المستقبل، فوق الصندوق العجيب رتبت الأفرشة الجميلة بألوانها من بينها فراش جهاز الخالات ...المكان كله صورة عن جمال سكان «القرابة»

في الصالة بابا يؤدي إلى مساحة ترابية صغيرة قد غرست بشجرة الرمّان التي كانت تجود بأحلى ثمارها بفضل عناية الجدة- رحمها الله- نعم هل هناك أحلى من هذا، ثمار بأنواعها في حوش واحد ونحن نعشق ذباب المدينة تبا لنا.

بعد الحديقة الصغيرة كانت هناك غرفة مهجورة للمهملات وهي الأخرى لها قصتها العجيبة. كنّا نسميها بيت الخروف أين كان يقضي بها الخروف أيامه الأخيرة قبل العيد الأضحى. وهاته الغرفة عبارة عن مطبخ كبير به أشياء قديمة تعبر عن أصالة أهل «القرابة»، شدني إليها ذلك القدر التقليدي الفريد من نوعه قدر ضخم أسود خاص بالولائم وإعداد الوجبات الكبيرة، بالإضافة إلى خزانة خشبية كانت مرقدا للقطط حيث تضع صغارها فيه ولا يعارض أحد مادامت في حماية الجدة التي كانت تحضر لها البركوكس عند النفاس.

من أجل كل ذلك وأكثر أحنّ إلى «القرابة» وأفراحها التي كانت تأخذني جدتي إليها، أفراح لا مثيل لها تدوم سبع أيام وسبع ليال أعراس ينصب لها الخيام، فالجميع يفرح والجميع معزوم دون استثناء.

أحبّ «القرابة» التي أخذت فيها أولى حروفي مع القرآن في مسجد الحي، ذلك المسجد الذي يكاد يطل على حوشنا لولا بيت أو بيتين يفصل بيننا.

من أجل كل ذلك أحنّ إلى شاي «القرابة» والسنية الذهبية والمبسس-أكلة من السميد والملح- والعيش البسيط.

وبينما أنا في رحلة ما بين «المدينة والقرابة» هاتفتني إحدى الصديقات تذكرني بموعدي بها لزيارتها رجعت مستسلمة إلى المدينة ودروبها ناوية شراء إحدى الصحف التي ما إن أقرأها أسارع لغسل يداي من سوادها وكأني ارتكبت جريمة وأسارع للتطهر منها.